

ميس الريم

....

تعيدنا (زيون)، القادمة من مدينتها والمتوقفة في طريقها إلى ضيعة جدتها (كحلون)، إلى ثلاثينيات القرن العشرين، بدلالة موديل السيارة التي تعطلت بها في بلدة (ميس الريم) فكانت المسرحية الممتعة التي قدّمت في شتاء العام ١٩٧٤ على مسرح قصر البيكاديلي ثم أعيد تقديمها في خريف العام نفسه على مسرح معرض دمشق الدولي ضمن مهرجاناته الفنية السنوية، وكالعادة بعد أغنية رائعة لدمشق وللجمهور السوري بصوت سيّدة بلاد الشام فيروز.

تقوم السيدة فيروز بدور البطولة في المسرحية التي ألّف كلماتها وألحانها الأخوان عاصي ومنصور بمشاركة كل من الياس وزياد الرحباني، والعمل من إخراج عاصي، الذي بدأ اعتباراً من هذه المسرحية يدير عملية الإخراج بدلاً من المخرج التقليدي للأعمال السابقة، الفنان صيري الشريف (توفي عام ١٩٩٩)، الذي كانت "ناطورة المفاتيح" آخر المسرحيات التي أخرجها خلال تاريخه الحافل مع الأخوين رحباني، بالإضافة إلى تصميم تقنية الإضاءة في جميع تلك المسرحيات، وقد رافقه في الكثير منها المخرج المساعد برج فازليان الذي أخرج "المحطة" و"لولو". وسنرى عاصي الرحباني مخرجاً لمسرحيات "بتر، ١٩٧٧" و"المؤامرة مستمرة"، ١٩٨٠ و"الربيع السابع"، ١٩٨١ التي توقّف عندها مسرح الأخوين رحباني.

وهذه المسرحية هي الثانية بعد محنة بيت الرحباني ومحنة الملايين ممّن كانت قلوبهم مع عاصي في مرضه قبل عام ونصف، وقد تقبّلها الجمهور الرحباني في بيروت ودمشق دليلاً لا يقبل الشكّ على تحقّق أملهم في شفائه وفي استمرار النهر الرحباني المتدفق فناً وأدباً وفكراً وعطاءً منقطع النظير.

قبل أن تُرْفَع الستارة عن المشهد الأول في المسرحية ذات الفصلين تقدّم الأوركسترا نفسها عبر مقدمة ناعمة تشترك فيها جميع المكونات مستعرضة طاقاتها العظيمة بين أنامل وأفواه أمهر العازفين وقد روّضتها المنهجية الموسيقية الفذة لتلبّي تطلّعات جمهور تميّز بذوق رفيع وثقافة عالية. تضعنا الموسيقى التعبيرية العذبة في واحدٍ من أحياء البلدة التي قاربتّها أعمال الديكور من مظهر مدينة يرونا الإيطالية، التي عاش فيها العاشقان (روميو) و(جولييت)، بطلا رائعة شكسبير الخالدة.

نحن في ساحة ميس الريم، التي تطلّ عليها مجموعة من المنازل التقليدية المبنية من الحجر الأبيض والمسقوفة بالقرميد الأحمر والمزينة بأحواض الزهور الملونة ونباتات المنازل وقد تطاولت في امتدادها كالعرائش صعوداً وتدلّت في تسللها نزولاً وعلى امتداد قضبان حديد النوافذ وعتبات الأبواب، تستقبل شمساً وُلدت لتوّها من خلف الجبال وبدأت أشعتها الطريّة تخترق بحريّة أصغر الفراغات بين وريقات تتبادل المداعبة مع نسيّات الصباح القادمة من البحر وكأنّها ترافق (زيون) في رحلتها اللطيفة.

بعد المقدمة تنتقل بنا الموسيقى فوراً إلى حالة الارتباك والحزن التي اعترت الفتاة الغربية وهي تنزل من سيارتها في مدخل الساحة وتبيّن لنا أنّ عطلاً قد أصاب السيارة فتعذر تشغيلها.. لحظات ويأتي إلى المكان حُرّاس البلدة:

الحُرّاس: أهلاً وسهلاً فيكي بيلدنا ميس الريم

مِنْ قَدَمِكَ حَالِنَا حِرَّاسَ مَيْسِ الرِّيمِ

....

تجلس الفتاة قرب سيارتها متجنبة بشالها الأزرق الجميل النُسيمات الباردة المميزة لأوائل ليالي شهر أيلول فتلمح نعمان خارجاً إلى شرفة بيته يتلفت يُمَنة ويسرى ويتذكر (كانت مثل هَلَقْ يَفْتَحِ الشَّبَّاءُ وتَسَهَّرُنِي).. بعد لحظات تخرج شهيدة إلى شرفة بيتها وتقول (كان مثل هَلَقْ يَفْتَحِ الشَّبَّاءُ ويسَهَّرُنِي) ويتابعان كلُّ عند حدّه:

نعمان: عَمَرُو بَيْنَاتِنَا حَيْطَانَ
شهيدة: الغَيْمِ طِفِي النَجْمَةِ
نعمان: دَبَلْتِ الْوَرْدَةَ بِالْمَرْهَرِيَّةِ
شهيدة: رَدَلِّي مَحْبَسَ الْخَطْبِيَّةِ
نعمان: بَغْنَيْلِكَ وَهَالِئِلِ بِيغَنِّي مَعِي
وَبِتْخَيْلِكَ فَوْقَ الدَّرَجِ عَم تِسْمَعِي
وَمَرَّاتٍ بِيكْتُبُ دَمْعَ عِ الْحَيْطِ الْعَتِيقِ
بَلْكَ يَا أَيَّامَ الْعَتِيقَةِ بَتْرَجَعِي
شهيدة: لَا أَنَا وَلَا أَنْتِ عِدْنَا رَاضِيَيْنِ
اتْنَيْنَاتِنَا الظَّاهِرِ عَلَيْنَا مُغَيَّرَيْنِ
هُوِّي الْحَكِي هُوِّي الْعَتَبِ هُوِّي الزَّمَانِ
مَا عَادَ هَلَقْ فِيكَ تَعْرِفُ ذَنْبَ مِينِ

....

المختار: زِيُونِ اللَّيِّ سِتَّاءَ مِنْ كَحَلُونِ؟! عَرَفْتِكَ وَتَعْرِفُ سِتَّكَ ..
إِنْتِي وَرَاجِي وَحَاتِمِ يَا بِيِّي مَلَا تَلَاتِيَّةِ يَا بِيِّي مَلَا تَلَاتِيَّةِ
زِيُونِ: أَنَا طَالَعَةُ لَعْدُ سِتِّي وَكَانَ عِرْسُ بِنْتِ خَالْتِي وَتَعَطَّلَتْ سَيَّارَتِي بِمَيْسِ الرِّيمِ
المختار: وَتَأَخَّرْتِي.. وَالْمِيكَانِيْسِيَانِ نَعْمَانِ حِرْدَانِ، مَا صَلَّحَ لِكَ السِّيَّارَةَ
خَرَبْتُي الْبَلَدِ.. إِنْتِي مِثْلَ سِتَّكَ مِشْكَالْجِيَّةِ

تشعر زيون بالغبن والتجني، فما أرادته هو الانتصار للحب وتحريك البيئة القائمة على التعالي والكراهية لنفض المواقف السيئة عن حياة الناس.. وأقصر طريق لشرح ما حصل هو الغناء اللذيذ الذي بدت على الفور محبة المختار الكبير له فراح يستمع إلى الحكاية من حنجره الفتاة الناعمة وعلى نغمة عذبة راقصة

زِيُونِ: يَا مِخْتَارِ الْمَخَاتِيْرِ بِحَاكِيَلِكَ الْحَاكِيَاةِ
أَنَا مَا بُجِبَ الشَّرْحِ كَثِيرِ وَلَا فِي عِنْدِي غَايَةِ
بَدِّي تَفَلَّلْنِي بِكَيْرِ يَا مِخْتَارِ الْمَخَاتِيْرِ

....

يفترق العاشقان ثانية وقلبهما يعتصر ألماً لخسارة الحب وللنتيجة القاسية التي وصلا إليها.. أما راجي فقد عاد إلى قلبه الحنين إلى الحب والودّ وحكاياته المنسية، بعد أن هزّ كيانه حسم الأمور ليس في صالح أحد وعلى حساب ابنه بالدرجة الأولى دون أن يكسب جولة واحدة مع خصمه حاتم.. وهاهو يرى الحزن وقد خيم على المكان والأسى وقد بلّلت دموع العاشقين قصائده

راجي: أو و و و ف أو و و ف أو و و ف

/ خَبَرُونِي يَا عَصَافِير الدَّارِ

بِهَآكِ الْبِنْيَةِ الْعَاشِقَةِ شو صار / (٢)

بَعْدَا بْتِسْقِيكُنْ بِيَايْدَا مَيِّ

وَبَعْدَكُنْ بِيْتَخْبَرُوهَا خُبَار

....

لم تصل زيون إلى حلّ للمشكلة التي كانت وراء حكاية (ميس الريم).. تكسرت أحلامها أو على الأقل أجزاء منها.. فلقد أرادت أن يفيق الناس إلى علاقات المحبة وإلى تقديس الحب ولكنها أرادتهم أيضاً أن يسهروا على تنقية نفوسهم فلا ينتهي العالم بالنسبة إلى الفرد عند حدود مصلحته. ولم يحصل هذا.. في مسرحية "لولو" أيضاً انتهى أمر الفتاة بالانكسار لأنّ نايف بقي على حاله وزوجة القاضي كانت تخطط للشر حتى آخر لحظة ومعها كمّ من الانتهازيين.. لقد تركت لولو الحيّ وعادت مع جدّها إلى الأرض (جديّ خذني معك).. ولم تكن حالة وردة في نهاية مسرحية "المحطة" أفضل، فقد تحقق حلم الناس وبدأوا السّفَر بنذاكرهم التي باعتم إياها وردة ولم تُبق لنفسها واحدة.. ولم يعطها أحدٌ (اعطوني تذكرة.. اعطوني تذكرة) !!

إنها الصرّخة الرحبانية المستمرة إيقاظاً للضمائر وتحريضاً للوعي والإدراك بأننا سنبقى على ما نحن عليه ما لم نتغيّر جذرياً نابذين الأنانية والتّعالي على الغير ومشاعر الكراهية وما لم نتخلّص من أوهام النفوذ والمُلك والثراء الشينّي تاركين الثقافات البالية إلى ثقافة عصرية جديدة وحياة متطورة إنسانها من نمط جديد. ولن يكون لنا هذا ما لم نُصلح السيّارة كي تمشي بنا بشكل يتناسب والطبيعة فنتحرك إلى الأمام.

زيون: / مَبَارِحْ شَفِنَاهُنْ طَالَعِينْ / عَلَى قَمَرِ الْعِشَاقِ طَالَعِينْ / (٢)

نَحْنَا بِمَطْرَحْنَا وَاقْفِينْ / وَالسِّيَّارَةَ مِشْ عَم تِمَشِي

الحرّاس: هَالسِّيَّارَةَ مِشْ ...